وراء كمامة الغاز

[هذا المقال ملخص فصل للكاتب الانكليزي بنرلي نيكلز في كتابه « المشهور » « City Havoc » وهو الكتاب الذي عالج فيه موضوع الدعاية للحرب والسلاح وصناعة الاسلحة ومؤامرات نزع السلاح بأسلوب يقرب دقائق هذه المباحث من اذهان العامة]

كان الوقت بعيد الظهيرة ، والجو قاتم مريد ، لما سرتُ في طريقي الى زيارة شركة «أنتي غاز لمتد» وهو اسم مستعار لشركة حقيقية — ومعنى الاسم شركة مقاومة الغاز

سرت على قدمي لقتل الوقت لان الميعاد لم يأزف ، ولان مقر الشركة على ضفة التاميز الاخرى ، وأنا أحب ان اجتاز جسور لندن على الاقدام. ولبثت قليلاً على جسر وستمنستر ، وحدقت في النهر ، فرأيت جريانه اليوم اسرع من جريانه العادي ، وكانت الطيور تحوم فوقه ، تشيل وتحط ، والزوارق البخارية تصفر وتنفخ وترسل دخانها في الفضاء . حتى هنا لست اجد سلاماً !

ثم تابعت سيري . . . وأخيراً وصلت الى نافذة شركة (انتي غاز ليمتد) . فوقفت وحدقت . وانتي لارتاب في عمل فكر مئات الالوف من المارة بأن هذه النافذة تستحق التحديق فيها . لانها لا تسترعي النظر . . . بل لمن السهل ان تحسبها نافذة لمكتب قديم من مكاتب المحاماة . وكان زجاج الجانب الاسفل من النافذة عيشاً غير شفاف . والاشياء المعروضة فيه قليلة وتنبو عنها العين . هو ذا اداة لاطفاء النار ، وجهاز للتنفس ، وشيء ثالث لم أتبينه . انك لا تجد في هذه النافذة ما يدلك على ان في هذه الدار ، الوسائل الوحدة التي تستطيع لندن ان تستعملها لحمايتها ووقايتها من لعنة الغازات في الحرب المقبلة !

ماذا ... ماذا تقول ... الوسائل الوحدة للوقاية ..! ولكن اين الجيش ؟ اين سلاح الطيران ؟ انما اثبتنا لك ايها القارىء العزيز ، انهُ رغماً عن جيش حديث مستعد ، وسلاح طيران عزيز كفء ، لا تستطيع اية مدينة ان تدافع عن نفسها الدفاع الوافي في عصر الطيران ، واذن فهي معرضة ، لقنابل الغاز تنثر فوقها وتنشر غشاء من الغاز ، يخنق ويميت

سلمت بذلك ؟ ولكن ماذا تقول في كمامات الغاز ، الكمامات التي استنبطت لتقي من الغاز القتال؟

ان هذه الشركة على ما اعلم ، هي الشركة الانكليزية الوحدة التي تصنع كمامات الغازات ، صنعاً واسع النطاق . اذن يصح قولي السابق ، رغم اعترافك ايها القارىء الكريم ، بأن في هذه الدار الوسائل الوحدة التي تستطيع لندن ان تستعملها لحمايتها ووقايتها من لعنة الغازات في الحرب المقبلة

فلندخل هذه الدار آمنين لنرى ما يصنع فيها لوقايتنا

قرعت نافذة مكتب الاستقبال فانفتحت شاب بسيط ، فأعربت له عن رغبتي فقال مرحباً — من هنا يا سيدي — فصعدنا سلماً ضيقاً ضئيل النور ، ودخل بي الى غرفة صغيرة ، تفتح نافذتها على صحن حديقة الدار ، فتحسست ان اشرت اليه بان الدار مكتب محام قديم محافظ . ولكنني رأيت بعد قليل شيئاً يبدد وهمي

ذلك اني رأيت في خزانة زجاجية لعباً ، وقد ليست جميعها كمامات الغاز ؟

فاعجبت بالفكرة . وقلت في نفسي ، ان افضل هدية لعيد الميلاد ، هي ان تشتري كل والدة لعبة ليست كمامة غاز وتهديها الى ابنها ! وتصورت عندئذٍ الوفاً من اصابع الاطفال الغضة في بيوت انكلترا ، تتناول هذه الكمامات وتضعها على وجوه احبابها المحبوبة . وعند التحديق في الخزانة ، عرفت ان هذه الاشخاص ليست نصباً على الاطلاق ، وانما هي ، امثلة صنعت خاصة ، للتمثيل على استعمال الكمامة ، فبعضها للحرب ، وبعضها للمناجم

عند ذلك فتح الباب وسير بي الى مكتب الرجل الذي صد اليه في ان يطرف بي ارجاء المعمل. فلندعهُ « المستر اكس » وانا في نقلي ما رأيتهُ في هذا المعمل لا احس بتأنيب الضمير الذي احسست به عندما كتبت عن مصانع السلاح . ففي المرة الاول كنت جاسوساً يريد ان يبيح للعالم اسرار هؤلاء الناس الذين يجنون الربح من الاتجار بوسائل الحرب ، ولكن هذه الشركة مقاومة للسلاح الذي يقصد به الى تقتيل الناس وإزهاق ارواحهم . بيد ان بين مصانع السلاح وبين هذا المصنع المقاوم لفعل السلاح ، شبهاً اساسيًّا . ذلك ان معامل السلاح تبيع سلاحها لابناء وطنها ولاعداء وطنها ، على السواء — فشعار اصحاب مصانع السلاح « اقتلوا من تشاءون ما زلتم تشترون سلاحكم منا » . وشعار مصنع الكمامات هذا « خلصوا من تشاءون ما زلتم تشترون كماماتكم منا »

واذ نحن ماردون في دهليز قائم رأيت كومة عالية من اقراص معدنية فقلت للمستر اكس ما هذا ؟

قال — اجزاء كمامات واقية من الغاز ؟

قلت — ولكن هذه الكومة كبيرة جداً !

قال — عددها اربعون ألفاً

قلت — أصحيح ما تقول ؟ انهُ يسرني ، ان يبقى في انكلترا اربعون الفاً بعد الحرب الكبرى ، لانهم استعملوا هذه الكمامات

قال — في انكلترا ؟ ولكن هذه الكمامات صادرة الى تركيا !

ما اعجب الجشع الانساني ! لنفرض ان انكلترا اضطرت ان تحارب في الشرق الادنى ، فيحاول طيارو ها ، ان يدمروا مدينة تركية ، فيتقي اهل المدينة فعل الغاز الانكليزي بكمامات انكليزية ، ويحاولون ان يسقطوا ، الطيارات الانكليزية بمدافع انكليزية !

واذ أنا أفكر ، في هذا ، توقف المستر اكس ، فاذا نحن امام الكمامات نفسها لا امام اجزائها ،

وهي من اشنع ما تقع عليه العين ، وابعدها شكلاً عن الطبيعة والحياة ... وكانت هذه الكمامات معلقة على صف فوق صف . ثم التفت اليّ وقال — وهذه الكمامات صادرة الى حكومة اجنبية اخرى !

قلت للمستر اكس : من الممكن ان تعطّى مدينة لندن ذات يوم بغشاء من الغاز

قال : ذلك ممكن ... على الاقل

قلت : وهل يمكن ان يجهز كل رجل وكل سيدة وكل طفل بكمامة واقية من الغاز ؟

فتوقف قليلاً ... وفي توقفه حسبت انهُ يفكر فيما كنت افكر فيهِ من ناحيتي ، لانك اذا وجهت هذا السؤال وانت تعني ما تقول ، كان الجواب عنهُ في طيات السؤال نفسه . تصور الاطفال والمجانين والمرضى في المستشفيات ، وعمال النقل — تصور مدينة كبيرة يحصى سكانها بالملايين ، وقد لبس جميع ابنائها هذه الكمامات ٢٤ ساعة ! والراجح ان الرجل كان يفكر في هذا فقال :

— نحن نستطيع ان نصنع اربعين مليون كمامة ، وتبيع الكمامة الواحدة بخمسة وعشرين قرشاً

قلت : أتستطيعون حقيقة ان تصنعوا اربعين مليوناً . قال : نستطيع ذلك ونجني منهُ ربحاً

قلت : وماذا تفعل بعائلتك . قال: اول شيء افعله ، هو ان ابني غرفة في داري لا ينفذ الغاز اليها

قلت : وكيف تصنع ذلك ؟ كيف تتنفس ؟

قال الرجل : أتريد ان ترى كيف تمتحن كمامات الغازات التي نصنعها ؟ فقلت : يهمني ذلك

فنزلنا سلالم خشبية ضيقة ، ومضينا في ممر قاتم واجتزنا غرفة ومادية ، وخرجنا الى صحن خلفي على جانب من القذارة . شممت رائحة لاذعة حريفة متصاعدة من جوانب الصحن . وكان أمامنا ، غرفة سوداء ، تتسع لاثني عشر رجلاً ، وكان لها ثلاث نوافذ غام زجاجها ، بما تفلص عليهِ من رطوبة الهواء . وكان في أرضها ثلاثة ثقوب سُدّت بالفلين . وشاع في جوانبها رائحة كريهة كأنها متصاعدة من جثة بتنة

واذ انا احدق في هذه الغرفة ، سمعت سعالاً ورائي ، فالتفت فرأيت ثلاثة رجال ، قد صفوا صفّاً واحداً للتفتيش . كان اثنان منهم كهلين ، وقد لبسا جزامين عجيبي الشكل أظنهما كمامتي اكسجين من النوع الذي يستعمله المهندسون عند حفر الانفاق . أما الثالث فكان فتى في التاسعة عشرة من العمر . وكان هو الذي سعل السعال الذي نبهني اليهم . وكان يحمل كمامة الغاز التي توردها هذه الشركة الى وزارة الحربية

استرعى هذا الفتى نظري ، لانني رأيته يرتجف من رأسه الى أخمصيه . ولماذا يرتجف ؟ فالجو ليس بارداً ، بل هو معتدل كل الاعتدال . ما حكايته ؟ وكأنه كان على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يستطع ان يقول ، لأن صاحبي المستر اكس صفق بيديهِ وأصدر الأمر بلبس الكمامات

فلبس الرجال الثلاثة كماماتهم . ان يدي الفتى لا تزالان ترتجفان ، حتى كاد يعجز عن ربط سيور الكمامة على قذالهِ

وعند ذلك فتح باب وخرج منه مرتدياً معطفاً ، ودخل الغرفة القاتمة ، وادخل فيها دائرة كهربائية ، فقفزت بضع شرارات في الظلام بين قطبيها ، وخرج هو من الغرفة مهرولاً ، وبعد دقيقة ، رأيت غماماً من الغاز الاسود ، قد بدأ يخرج من الباب ، بعد ما ملأ جو الغرفة

فقال المستر اكس ، هذا الغاز ليس من أشد الغازات سمًّا ، ولكن اذا استنشقت منهُ مقداراً كبيراً سقطت في الحال عاجزاً ، بيد ان تأثير الغاز الذي من هذا القبيل نفسيٌّ على الاكثر ، ويجب ان نعوّد الناس ان يستعملوا هذه الكمامات

وفكرت في التأثير النفسي ، فتذكرت الشاب المرتجف ، وكان قد دخل الغرفة التي يملأ جوها هذا الغاز الاصفر

ثم فتح الباب ، وخرج الرجال يتعثرون وأزالوا الكمامات عن وجوههم ، فاذا وجه الفتى ممتقع كأنهُ فاقد الحياة ، فتقدمت نحوه وقلت هل لي ان أرى كمامتك ؟

قال : أتريد ان تدخل الغرفة ؟

قلت : نعم ، لأرى ما هو هذا التأثير النفسي !

قال : طيب . ولكنني لم ار منهُ ما يشجع . قلت : ليس ثمة خطر ما من الدخول ؟ قال : لا . ليس ثمة أي خطر .. إنما كنت افكر في ثيابك ، فقد تتشبع بتلك الرائحة الكريهة

فقلت ان رائحة ملابسي لا تهمّ .. اخذت الكمامة من الشاب وكان عليها من الداخل قطرات عرق تصببت من جبينه . فوضعتها على وجهي وربطت قيودها على وسطي وقذالي وعندئذٍ احسست اني بعيد عن العالم . يفصل بيني وبينهُ حجاب صفيق ... حتى التنفس كان عسراً ، كأنك تستنشق هواء من عالم آخر .

دخلت الغرفة ، واذا العالم في نظري كالكابوس يتملكك ، في الليل يثقل تنفسك ، ولا تدري كيف الخلاص منهُ ولم يكن ذلك الاحساس ناشئاً عن الخوف ، لان الدخول الى هذه الغرفة ، والكمامة على وجهك لا يعرّضك لأي خطر ، إنما كان ذلك فعل التأثير النفسي ، الذي أشار اليه صاحبنا المستر اكس ، ورأيت اثره على وجه صاحبنا الفتى المرتجف الممتقع . ذلك انك تحس انك فقدت كل حيلة ، فكأنك حيوان تحيط به النيران ولا يدري اين المفر

***

والآن أغمض أيها القارىء عينيك وتصور سيدة جميلة تحبها ، وقد لبست احدى هذه الكمامات ، تصور ان والدتك او ابنتك او زوجك قد لبست إحداها ، فهي لا تستطيع ان تتكلم إذ تلبسها ، ولا تستطيع انت ان تخاطبها اذا لبس كلٌّ منكما كمامة ، بل لقد تنفر منها اذ تراها في هذا القناع المخيف

ثم قل بربك كيف تستطيع امة بأسرها ، ان تتقنع ، بهذه الكمامات وتمشي في حياتها تحت هذا التأثير النفسي ، منتظرة العدو يلقي عليها الغاز من الفضاء ؟ !